المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
العدد 7 لسنة 2022- تشرين2
No. 7 – November 2022
ISSN 2710-0952 (Print)
ISSN 2790-1254 (Electronic)

أزمة الهوية في الرواية العراقية ـ دراسة ثقافية في الرواية العراقية ما بعد 2003

م.د. وسام عباس جعيجع
كلية أصول الدين الأهلية الجامعة

ملخص

يحاول هذا البحث رصد نماذج مختارة من الروايات العراقية التي صدرت بعد عام 2003، متتبعًا تمثلات أزمة الهوية فيها، خاصة ذلك الجانب الذي يعبر عن صراع الهويات الاجتماعية والطبقية وغيرها، وما للتاريخ والسلطة السياسية ونتاجاتها السلبية من دور وتأثير في تكوين أزمات نفسية واجتماعية حادة، تنتهي على الأغلب إلى نهايات مأساوية عنيفة موشحة بالدم، والانقسامات المجتمعية. وكيف لكل هذا النزيف الإنساني أن يتمثّل نصِّيًّا من خلال الأعمال الأدبية، خاصة الروائية منها، لأنها تمثِّل في أهم جوانبها صورة فنية وفكرية للكيان الاجتماعي. وسيكون منهج البحث نابعًا من منظور الدراسات الثقافية، إذ يتعلّق بجانبٍ منه بالإطار الاصطلاحي النقدي الخاص بالتحليل السردي، وبجانبٍ آخر بالدراسات الثقافية التي انتشرت في الدراسة الأدبية الحديثة منذ ستينات القرن الماضي. ولعل هذا التوليف النقدي من الدراسة يمثل مزاوجة لا بد منها للوصول إلى المضامين العميقة التي ينطوي عليها النص الروائي، التي من الممكن للنقد أن يتتبعها من خلال تعدد القراءات الذي أتاحته الدراسات الثقافية.

كلمات مفتاحية : ازمة الهوية ، ثقافة ، رواية

Identity Crisis In The Iraqi Novel - A Cultural Study In The Post-2003 Iraqi Novel

L.Dr. Wissam Abbas Jeajea
College of Fundamentals of Religion National University

Summary

This research attempts to monitor selected models of Iraqi novels that were published after 2003, tracing the representations of the identity crisis in them, especially that aspect that expresses the struggle of social, class and other identities, and the role and influence of history and political power and its negative results in the formation of severe psychological and social crises, ending Mostly to violent, tragic endings marred with blood, and societal divisions. And how can all this human bleeding be represented textually through literary works, especially novel ones, because they represent in their most important aspects an artistic and intellectual picture of the social entity. The research methodology will stem from the perspective of cultural studies, as it relates to one aspect of it with the critical terminological framework of narrative analysis, and on the other hand, the cultural studies that have spread in modern literary studies since the sixties of the last century. Perhaps this critical synthesis of the study represents an indispensable pairing to reach the deep contents of the fictional text, which criticism can track through the multiplicity of readings made possible by cultural studies.

Keywords: identity crisis, culture, novel

مقدمة

من الممكن القول بأن الامتزاج بين أصول وقواعد النص الأدبي الخاصة بالمجتمع وثقافته يعدُّ أساسًا متينًا في توجيه هذا النوع من الدراسات إلى خوض مغامرة الكشف عن بعض المعاني الخفية في النص الأدبي، فضلاً عن الجلية منها. وذلك امتزاجٌ _ولا ريب_ قد ولد من مخاضات المجتمع ومؤسساته وفي جوٍّ مشحونٍ بالمركبات الثقافية المؤسسة كالدين والأساطير والرموز. ولهذا السبب كان على المنهج النقدي الثقافي أن يتكئ على قاعدة من الامتزاج أيضًا، بين عدد من المناهج العلمية الإنسانية المختلفة لتعينه على ما يطمح إليه من قراءة تحليلية أو تأويلية في مقاربته للنص المدروس.

المبحث الأول: الهوية والاضطهاد:

تمثِّل الهوية بالنسبة للجماعة، إطاراً محدداً لتشكيل تصورها عن نفسها من جانب، وحدود اختلاف تلك الصورة عن صورة الآخر المختلف، فهي _أي الجماعة_ تنظر للآخر من منظور هذا التباين الذي ترثه غالبًا من البيئة والثقافة والدين والتاريخ والأساطير وغيرها. وتشكل هويتها ضميرها الجمعي بما فيه من مشتركات خاصة بها تميزها عن الآخرين([1]).

ويمكن للرواية أن تكون معبِّرة عن تنوع الهويات الاجتماعية، بصورة محايدة أو منحازة، بالضبط كما هي طبيعة عملية توثيق التاريخ، باستثناء الجانب الفني الذي تختص به الرواية بوصفها أدبًا حاملاً لخصوصية جمالية. غير أن هذه الخصوصية الجمالية يمكن أن تكون قناعًا مواربًا أو مضلِّلًا إذا ما نظرنا إليها من منظار تاريخي، أو اجتماعي، بصورةٍ مختلفة عما يقدِّمه النص التاريخي التوثيقي؛ وذلك لأن الانحياز في النص الأدبي يمكن أن يجري من خلال تلاعب فنِّي في توظيف عنصري الزمان والمكان، أو دمجهما معًا بصيغة الزمكان (الكرونوتوب)، بحسب اصطلاح الناقد الروسي ميخائيل باختين([2]).

وقد يجري ذلك التلاعب من خلال تسليط الضوء على شخصية أو حدث أو موضوع معيَّن، في إزاء إغفال شخصية أو حدث أو موضوع معيَّن آخر!. وهذا لا يعني أن النص التاريخي أكثر أمانة تاريخية واجتماعية من النص الأدبي في أمثال هذا الموقف المحتمل، لكن هنالك فرق جوهري، من هذه الناحية، بين النصَّين؛ يكمن في الأدوات، فأدوات المؤرخ التقليدية متاحة للنقد المنهجي إلى حدٍّ ما، بصورةٍ أكبر مما عليه الحال في أدوات الكاتب الأدبي، الذي ذكرت آنفًا بأن الخصوصية الفنية وما تنطوي عليه من قدرة على التلاعب (الفني_التاريخي) التي يتيحها له نصُّه أكبر من الخصوصية المتاحة لكاتب النص التاريخي. يتَّضح النمط من الكتابة التي يمتزج فيها الفني بالتاريخي في رواية (خلف السدَّة)([3])، لمؤلفها عبدالله صخي. في الفصل الرابع من الرواية يقدم الراوي حدث زيارة رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم إلى البلدة الشعبية البسيطة خلف السدَّة، بصيغة تاريخية|-فنية، ممتزجة بموقفه السياسي المؤيد لعبدالكريم قاسم:

((لم تكن زيارته الأولى للبلدة إذ كان غالبا ما يترك مكتبه ويتجول ليلا بسيارته، يطوف حولها، ويخمن حجمها ومساحتها. وذات مرة، وكان الوقت مساء، أوقف سيارته في المكان ذاته. نزل منها

---

[1] ينظر:في تقسيم العمل الاجتماعي، إميل دوركهايم، ترجمة: حافظ الجمالي، ص98.

[2]) في تفاصيل مصطلح الزمكان/الكرونوتوب ينظر: أشكال الزمان والمكان في الرواية: ميخائيل باختين، ترجمة: يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 1990.

[3]) خلف السدة، عباله صخي، المدى للثقافة والنشر، ط1، 2008.

وألقى نظرة على البلدة بعينين حالمتين وعندما عرفه الناس هرعوا إليه يهتفون...استقبلوا كلماته بدهشة وحب إذ أحسوا بعمقها وصفائها...))(خلف السدة، ص63)).

يتناول عبدالله صخي في روايته هذه جانبًا من التاريخي العراقي المعاصر، ويسلط الضوء على بدايات تأسيس مدينة الثورة (مدينة الصدر حاليًّا)، في بدايات النصف الثاني من القرن الماضي. مركزاً على ظاهرة نزوح أبناء الريف من جنوب العراق إلى بغداد بحثًا عن فرصٍ فضلى للعمل، وتدور الرواية في فلك الصراعات السياسية والطبقية والثقافية، بين أولئك النازحين من قراهم وأولئك الساكنين في العاصمة بغداد.

تبرز (رواية خلف السدة) ذلك الصراع المرير بين هويات مختلفة: هوية النازحين من الجنوب محملين بموروثهم الثقافي الديني والأخلاقي والعشائري والطبقي، وهوية أبناء العاصمة من الميسورين والمتعلمين:

((في ذلك الصيف البعيد وصلت المجموعة الأولى من المهاجرين الذين تركوا أرياف الجنوب وأهواره وقدموا إلى المدينة حالمين بحياة جديدة بعد أن قطعوا مسافات طويلة في عربات خسبية مفتوحة الجانبين، لها سقوف من شعر الماعز، تجرها خيول أرهقتها الدروب الوعرة والمستنقعات الجافة المتشققة...وجاء يوم اتضحت لهم منائر بغداد وقبابها متوجة بأشعة نحاسية)).(خلف السدة، ص8_9).

ولكن اصطدام هؤلاء النازحين بالبيئة المختلفة عنهم نسبيًّا في بغداد، لم يحملهم على الانكسار أو يدفعهم للتخلي عن موروثهم الثقافي، فسرعان ما عززوا الإفصاح عن وجودهم وخصوصيتهم بممارسة طقوس عاشوراء مندمجين حينًا، ومؤثِّرينَ حينًا آخر بالمجتمع الجديد الذي وفدوا إليه:

((أغلقت الدكاكين مبكراً، ورفع المزيد من الرايات الخضر والسود فوق سقائف السوق والأكواخ والغرف الطينية الخفيضة...أوقدت نيران تحت قدور نحاسية ضخمة لإعداد الرز والقيمة لتوزيعه على المشاركين في الموكب ثم المتفرجين الذين سيشهدون العرض الطقوسي الاستذكاري)).(خلف السدة، ص91_92).

وبناءً على هذا فقد صور عبدالله صخي جانبًا طالما أغفلته الرواية العراقية في عهودها السابقة، رغم أهميته في الكشف عن تنوع الهويات الثقافية في العراق، بل رغم تعلقه بممارسات شعائرية دينية لها حجمها الكبير، وحضورها الطاغي، اجتماعيًّا وتاريخيًّا، وقد كانت عبر حقب تاريخية طويلة سببًا من بين أسباب اضطهاد السلطة، وقمعها التعسفي؛ لما تحمله من بعد وجداني وثقافي يحرض على المعارضة السياسية، ويلتمس العدالة الاجتماعية في مثلها الدينية العليا، وهو أمرٌ يدعو _بلاشك_ إلى توحيد الوجدان الجمعي، على ما لا ترتضيه السلطة الدكتاتورية.

ومن المنطلق نفسه يعود عبدالله صخي في روايته اللاحقة (دروب الفقدان)([4]). ليسلط الضوء على مدينته الأثيرة، (الثورة)، كأنه يكمل في سرده الفني_التاريخي، مسلسل الزمن المسكون بالخراب والويلات، الذي حكم الشعب العراقي طوال عقود من تاريخه المعاصر، فضلاً عن قرون من تاريخه العريق!.

يستكمل عبدالله صخي رحلة العذاب هذه ببداية مأساوية شديدة الدلالة، تنبئ بطبيعة الحكم الدكتاتوري الذي جاء من تسنم حزب البعث المحظور لمقاليد السلطة والحكم في العراق، فكانت أول سطور الرواية ملائمة لتصوير مآلاتها:

[4])دروب الفقدان، عبدالله صخي،المدى، ط1، 2013.

((**في ذلك اليوم ذهب علي سلمان لمشاهدة تنفيذ أول عملية إعدام علنية في مدينة الثورة..عندما نهض من نومه كان الفجر يتسرب من نافذة الغرفة المطلة على شارع فرعي..**)).(دروب الفقدان، ص7).

ووفقاً لهذه النماذج التي تمثَّلت في روايتي عبدالله صخي، نتلمس العناصر الاجتماعية والتاريخية، وارواي هنا يستعيد كتابة الوقائع والأحداث التاريخية من خلال عبر استحضار الشخصيات والأزمنة والأمكنة الواقعية، ليؤسس من خلالها عالمه الروائي، بما يجمع بين الوثيقة التاريخية، والتمثيل الفني الأدبي بسردية تؤرخ لرحلة الألم والمواجهة.

وإذا كانت الروايات من خلال هذه المزاوجة التاريخية الفنية، تصور وقائع فعلية لها زمنها وأماكنها التي انبثقت من خلالها رحلة الألم والمواجهة تلك، وما تخلَّلها من تشريدٍ ومذابح؛ فإن التاريخ هاهنا يمثل مادة لتلك الروايات. ولنا أن نذكر أن (لوسيان غولدمان) كان كثير الإلحاح على أن الوجه الآخر لكل القضايا هو التاريخ نفسه: ((كل أشكال الفكر التي تبحث للتاريخ عن محرك ميتافيزيقي، كما يمكن أن نواجه كذلك كل أشكال التفكير التبسيطية التي تربط التاريخ بالأحداث السياسية فقط. لذلك كنا نجد أن التاريخ الذي يفكر فيه غولدمان أثناء اشتغاله على مواضيعه، كان هو التاريخ الكلي المنبثق عن الذوات)).[5]

المبحث الثاني: الهوية والزمن الضائع:

ومثل هذا ما نجده في رواية (سوزلي)[6]، لمؤلفها عمار الناجي، الذي حاول في روايته إبراز الهوية الكردية الفيلية تحديداً، التي تعرَّض أهلها للظلم والاضطهاد والتشريد، طوال حقب تاريخية ممتدة في الماضي، فكان لدينا في الرواية (الضحية والجلاد) وهم الكرد الفيليون بما يمثلونه من هوية لها فرادتها وخصوصيتها، خاصة في جنوب العراق، المنفعلة بالنشاط السياسي والثوري الرافض للظلم والتمييز العنصري، ضمن سياقات زمانية/ ومكانية واضحة المعالم، ولهذا نجد معالم الشخصية الرئيسة (سوزلي) وهي تتضح في الصفحة الأولى من الرواية:

((**هاجس داخلي همس فيه: هناك ما عليك حسمه قبل الرحيل. انتصب وألقم نيرانه المزيد من الحطب، فتصاعد الدخان، خيطا أبيض ملتويا كالأفعى، سرعان ما سلم قياده الرياح الخفيضة، تحمله حيثما تشاء**)).(سوزلي، ص5).

يفصح النصُّ هنا عن طبيعة الشخصية العنيدة العازمة على السير في طريق رحلة الألم والمواجهة، ويفصح النص كذلك عن مآلات تلك الشخصية، أو قل: مآلات الفكرة التي آمنت بها بوصفها جزءاً من هوية جماعة مشخصة، ناضلت برفقة جماعات مضطهدة أخرى في العراق لنيل حريتها وكرامتها، وتعثرت طويلاً وكثيراً، وتراءى لها نضالها كخيطٍ من الدخان أسلم قياده لريح الأقدار والعواصف السياسية والاجتماعية، وما يقف خلفها من تدخلات ومصالح أجنبية في شؤون العراق، خاصة في أواخر الحقبة العثمانية التي تدور فيها أحداث الرواية، وقد مثَّل المؤلف لتلك التطلعات الشعبية من خلال مثال الحوار الآتي، وهو كما ستلاحظ إلى جانب دلالاته وتعبيره عن بساطة الشخصيات ومستواها التعليمي المتواضع، يعبِّر عن أمل بالخلاص:

((_ **يتحدثون عن الدستور!.**

---

[5] يوسف الأنطاكي، المصدر السابق نفسه، ص216.

[6])سوزلي، عمار الناجي، دار ميزوبوتاميا للطباعة والنشر، بغداد، ط1، 2016.

ISSN 2710-0952 (Print) ISSN 2790-1254 (Electronic)

_وما هو الدستور؟

_لا أدري لكنهم _أقصد الأفندية_ متحمسون للدستور، يقولون أنه سيجلب الرخاء للبلد)). (سوزلي، ص65).

إن انتماء الروائي إلى جماعة ما يمكن أن تميزه عن سواه بطريقة واعية أحياناً، أو لاشعورية أحياناً أخرى، والالتفات إلى هذه المسألة قد يمكن من فهم النص الروائي وعلاقته بمجتمعه ضمن محددات الرؤية الاجتماعية[7]. ولا شك أن تاريخ المجتمع العراقي الذي شهد مراراً وتكراراً وقائع الانتفاضات والثورات الكثيرة، وما رافقها من العنف والاضطهاد؛ كان بالنسبة لكتاب الرواية مصدراً معرفياً ووجدانيًّا جوهرياً للتعبير عن مآسي المجتمع، بهوياته المختلفة، وضياع هويته في متاهة الزمن المفتوح على الضياع.

ترتبط شخصية (سوزلي) باشتراطات زمنية يفرضها عليها الالتزام الأخلاقي والقيمي، والتضحية في سبيل الحب، لكن هذه الاشتراطات تؤدي ب(سوزلي) الابتعاد عن أرض أهله وأجداده، ليقطع الرحلة وحيداً مغامراً، لا يصحبه سوى طموحه الذي لا يلين، وكلمة الوعد التي قطعها على نفسه قبل كلِّ شيء، وهكذا يجد نفسه في رحلته المحفوفة بالمخاطر، وحيداً في مواجهة الزمن والأماكن المجهولة. أيمكن القول بأن الأماكن المجهولة التي صار لزامًا على الشخصية أن تواجهها بمفردها، هي صورة عن فكرة انفصام العلاقة بين المكان والزمان، بين جغرافيا الوطن وتاريخ الأجداد، هي في حقيقتها الذاكرة، والحب الضائع، والهوية، فإذا اقتلعت أحدهم من وطنه إنما تقتلعه من هويته وهذا ما أراده المتسلطون دائمًا، وكان سببًا رئيسًا آخر في الهجرة. يمثل اقتلاع الإنسان من هويته وانتمائه الجغرافي اقتلاعًا وجوديًّا، للذات، كما يمثِّل اقتلاعًا وجوديًّا للجماعة، أو محاولة لإبادتها:

((توقف سوزلي عن المسير، ملقيا نظرات الوداع لأرضه ومنزله وتلك الشجرة الهرمة التي تسكنها أرواح أجداده...أمه لا تزال تولول وتردد مراثيها الحزينة التي تتسلى بها حين تشتبك عليها الدنيا...

_ستمحو الأيام وحوادثها ما جرى ونعود لأرضنا

_الأيام تمحو يا ولدي لكن لاشيء يعود..الماء لا يعود للينابيع بل يمضي إلى الجداول)). (سوزلي، ص46_47).

ولنا أن نتساءل هنا؟: هل يمكن للروايات العراقية، خاصة الروايات التي تناولت جانبًا من التاريخ السياسي العراقي؛ هل يمكن لها أن تعبِّر عن بعد واقعي صادق؟. ومن ثم هل يمكن تحليل هذا البعد بوصفه تعبيراً عن هويات اجتماعية متفرعة عن مجتمع واحد؟.

يرى بعض الباحثين ((أن العمل الأدبي صورة مطابقة كل التطابق للواقع. كما أنه ليس صورة مماثلة طبق الأصل لما يدور في الواقع، لقد ذهب بعض المفكرين إلى افتراض نوع من الصدق الفني، أي افتراض أن الأدب يصور بصدق الحقيقة الاجتماعية والتاريخية، أي أنه انعكاس صادق لما تعكسه المرآة للتاريخ والمجتمع))[8].

---

[7] روبيرا سكاربيت، سوسيولوجيا الأدب، ت: أمال أنطوان، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1978، ص16.

[8] د. محمد سعيد فرح، د. مصطفى خلف عبد الجواد، علم اجتماع الأدب، دار المسيرة، عمان، ط2، 2012، ص85.

ولكن علينا أن نتعامل بحذر مع هذا الرأي، فالرواية كما يمكن أن تكون تعبيراً صادقًا عن المجتمع؛ يمكنها أيضًا أن تكون تعبيراً زائفًا، بالضبط كعملية توثيق التاريخ كما أسلفت في مستهل هذا البحث. فعلى سبيل المثال فإن الرواية العراقية قبل 2003، وطوال مدة حكم السلطة الاستبدادية، كانت مقيدة بقيود إديولوجية ورقابية حدَّت من قدرتها التعبيرية، وكبَّلتها بقيود سميكة، منعتها _بنسبة كبيرة_ من التعبير عن تنوع الهويات الاجتماعية. أو قل: بأن بعض الروايات التي تملصَّت من القيد الرقابي، لم تتمكن من الوصول إلى تعبير مقنع عن التنوع الاجتماعي؛ وذلك لأن البيئة العامة والأجواء السائدة فرضت بظلالها الكثيفة على صدق الرواية فنيًّا وثقافيًّا. وبإشارة موجزة نستطيع أن نستذكر التزام الرواية العراقية في تلك المدة الزمنية وما سبقها من روايات في عقد السبعينات، عدداً من الاتجاهات الإديولوجية الواضحة، لا تكاد تخرج منها إلا قليلاً، وهي([9]):

1_الاتجاه القومي. تمثَّل في روايات عبدالرحمن مجيد الربيعي.

2_الاتجاه اليساري. تمثَّل في روايات غائب طعمة فرمان.

3_الاتجاه الوجودي. تمثَّل في روايات فؤاد التكرلي.

ولعل الذي يسوغ التوجهات الجديدة التي بدأت بالظهور والانتشار بعد عام 2003، وقدرتها على التعبير عن تنوع الهويات الاجتماعية هو انتماء الكتابة بصورة عامة إلى وعي جديد بالتغييرات السياسية والاجتماعية التي خلَّفها تغيير النظام السياسي في العراق. فضلاً عن الأحداث الصاخبة التي رافقت ذلك التغيير أو جاءت بعده، وفي مقدمتها الصراعات الطائفية الدامية، وتنامي ظاهرة الإرهاب والفساد السياسي؛ مما مثَّل صدمات متلاحقة للوجدان الجمعي، فكان على الأدب أن يتمثَّل جذور الاختلافات الدينية والمذهبية والعرقية، وأن يستعيد أصداء تلك الاختلافات مراراً وتكراراً بحثًا عن جذورها وأصولها التاريخية؛ فلعلَّه يجد ضالته التي تعيد إليه توازنه النفسي في عام مضطرب وفوضوي.

المبحث الثالث: الهوية وإعادة تشكيل العالم:

وبما يمثِّل إعادة تشكيل افتراضية جديدة للعالم، لجأت بعض الروايات إلى عنصر الخيال لتستعين به في تمثُّل العالم الحقيقي والفوضوي، كما في رواية (أموات بغداد)([10])، لجمال حسين علي، وتتجسَّد هذه الفكرة في مشهد محاولة بعث الحياة من جديد في كيانٍ ميت من خلال عنصر التضحية:

((طلب الرجل من السائق كميات من التراب خبأها في عدد من الأكياس وبدأ يمزجها مع الماء وطلا العربة بها، وكون ما يشبه مهداً من الطين الذي كان قد جلبه من شاطئ دجلة ومن المكان ذاته الذي كان حنين بن إسحاق يشرِّح فيه الجثث قبل عشرات العقود...قال:

_هكذا يولد العظماء: محمد يتيمًا، والمسيح تحت نخلة، ويوسف ما إن خرج من الجبّ، وموسى بعد انتشاله من سلة الماء كالملك سرجون الأكدي الذي أودع الفرات بسلة)).(أموات بغداد، ص503_504).

---

[9]) ينظر: الرواية العراقية1960_1980 دراسة لتمثلات العقل الاجتماعي، أطروحة دكتوراه، تقدم بها وسام عباس جعيجع الى مجلس كلية التربية_الجامعة المستنصرية، بإشراف: أ.د. بشرى موسى صالح، 2017م.

[10])أموات بغداد، جمال حسين علي، دار الفارابي، بيروت، 2008.

وفي تحليله لهذا الحدث، يرى الدكتور باسم صالح حميد أن اقتران موت الشخصية الرئيسة يتم بولادة (المنقذ)، وهي فكرة مأخوذة في الأصل من أسطورة الموت والانبعاث الرافدينية القديمة. وتأويل هذه الفكرة في الرواية، ينبع من محاولة اختلاق عالم مثالي مفترض لنبذ العنف والدمار الذي لحق بالمجتمع العراقي بعد عام 2003([11]).

تنبع فكرة المنقذ في كثير من الثقافات من فكرة الخلاص أو(الأمل)، فضلاً عن جذورها الدينية المعروفة في معظم الديانات. ويمكن أن ننظر إلى تمثيل هذه الفكرة في الرواية بوصفها مدخلاً تحليلياً للمضمون العام، أو الخلاصة التي يؤديها النص الروائي. وهو خلاصٌ ينبع من الألم، ومسيرة الوجع الإنساني، وأحداث العنف الدموي الذي يأتي نتيجة لتعسف السلطة وشيوع الجهل والتخلف في المجتمعات المقموعة.

ولعل الدراسات الاجتماعية كانت سباقة حين عرضت موضوع الأمل بالخلاص من الناحية الاصطلاحية، وهذا ما قام الباحث الفرنسي هنري ديروش (1914- 1994)، عندما طرح ذلك الاصطلاح ونظر له في ظل الحركات الاجتماعية الاشتراكية أو في ظل التفسير المسيحي حول عودة المسيح مرة أخرى للحياة.[12]. وكما أشار لذلك ضمنياً ماكس فيبر، في دراسته لفكرة الخلاص من الآلام والمعاناة المواكبة لمسيرة الإنسان في العالم[13].

أما رواية (فرانكشتاين في بغداد)([14])، لأحمد سعداوي، فتجري أحداثها في بغداد، وتحديداً في سنوات الصراعات الطائفية الدامية، والاستقطاب والتنافر الذي خلّفته تلك الأحداث في بنية المجتمع العراقي. وبالنسبة للأمكنة في الرواية فهي واقعية، وقد اتخذ الراوي من منطقة البتاوين وسط بغداد مسرحًا لأحداث الرواية الأساسية، وفي مقدمتها تكوين شخصية (الشسمة) المخلوق الذي يتكون من أشلاء الموتى الذين يخلفهم الاقتتال الطائفي والتفجيرات الإرهابية!. وتوظيف هذا المكان في الرواية له منحى عميق يشير إلى طبيعة التنوع الاجتماعي الذي شهده هذا الحي الصغير في قلب العاصمة، فهو رمز مكاني لتنوع الهويات واختلافها، وتعاقبها من اليهود والمسيحيين، والمسلمين. وخراب المكان صورة كنائية عن العلاقات الاجتماعية المخرَّبة بسبب الحرب وإفرازاتها المسمومة، التي أدت إلى غياب السلم المجتمعي، ونشر الفوضى والدمار، وهجرة كثيرين من المسيحيين والصابئة إلى خارج العراق، ولم يتبق منهم غير العجزة الذين لا يطمعون بتأسيس حياة جديدة خارج وطنهم، وبعيداً عن ذكرياتهم:

((سيذهب هذا الطعم المر ربما خلا التناول بعد القدّاس في كنيسة مارعوديشو. ستسمع صوت بناتها وأولادهن عبر الهاتف فتنسحب العتمة من صدرها قليلاً)).(فرانكشتاين في بغداد، ص13).

ما يميز هذه الرواية هو مزجها بين الواقعي التاريخي، والفني المتخيل، بطريقة تكاد تكون فريدة من نوعها في الأدب العراقي، ورغم ارتكاز الرواية على بنية جاهزة مستعارة مأخوذة من رواية

---

[11]) ينظرروايةالعنف دراسة سوسيونصية في الرواية العراقية ما بعد2003، د. باسم صالح، سلسلة نقد، ط1، 2007 ص46

[12]() ينظر تفاصيل ذلك: دانييل هيرفيه– ليجيه، جان بول ويلام، سوسيولوجيا الدين، ت: درويش الحلوجي، المجلس الأعلى لثقافة، مصر، 2005، ص371– 372.

[13]() Look: Max Weber, Sociology of religions, London, 1962.

[14])فرانكشتاين في بغداد، أحمد سعداوي، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2013.

(فرانكشتاين) لميري شيلي؛ فقد تمكن سعداوي من بث روح محليَّة خالصة في روايته، وتوظيف عناصرها الفنية لتخدم الفكرة الرئيسة في روايته، فكرة رفض العنف، وتصوير نتائجه التدميرية على المجتمع، وما يتبع ذلك من تشظٍ للهويات الفرعية، ومن ثم إعادة تشكيلها إلى شرٍّ مستطير، رمزت له شخصية (الشسمة).

إن تركيز الرواية العراقية ما بعد 2003 على تاريخ الأماكن التي كانت مسرحًا لأحداث روايته، إنما كان توكيداً لأهمية الذاكرة في تشكيل الوعي الخاص بالمجتمع وهوياته الفرعية.

إن تعرض الهويات الفرعية إلى العنف والاضطهاد يصبح جزءاً من ذاكرتها الجماعية، وأحد الموضوعات الأساسية في تكوينها، وقد تنبهت الدراسات الثقافية إلى أهمية الجذور والأحداث التي تتعلق بالذاكرة الجمعية، ورأت في محاولات استعادتها في أوقات المحن والأزمات، والأحداث ذات الطابع العنفي إنما هي عملية استعادة للتاريخ. وإن الذي يدفع مجتمعًا ما نحو العودة إلى رصيده من (الذاكرة الجمعية) بوصفها إطاراً عامًّاً للكيان الاجتماعي، هو بحثه عن مادة للتماسك في مواجهة خطر الانهيار والتلاشي، فبين تاريخ (الذاكرة) والواقع المباشر (الهوية) يعاد بناء التاريخ[15].

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث يمكن أن نخرج بخلاصة عامة مفادها أن عدداً من الروايات العراقية ما بعد 2003 تمكنت من عبور حاجز الرقابة السلطوية، والتخندق الإديولوجي واستطاعت أن تعبر عن تنوع الهويات الاجتماعية المختلفة، وأن العدد المعتد به من الروايات العراقية التي صدرت ما بعد 2003، وبما أتيح لكتابها من فسحة حرية في الكتابة، وبما سبق كتابتها أو رافقه من أحداث عاصفة ومشحونة، يمثِّل مادة موفورة الغنى من الناحيتين الفنية والثقافية، يمكن أن تقدِّم للدارسين ما يطمحون إليه في إطار هذا النوع من المناهج النقدية. مصادره المعرفية

وقد أتاحت لنا النماذج التي درسناها في هذا البحث الوقوف على ذلك الامتزاج الفني بين العناصر السردية والوقائع التاريخية والاجتماعية والثقافية على نحو مقصود أو لا شعوري، من قبل المؤلفين، وهم يؤسسون عوالم رواياتهم، وأن تشكيل تلك العوالم كان في جانب منه، تعبيراً عن ذاكرة جمعية محملة بالمعاناة والألم، وتمثيلاً تجسيد لدلالات ثقافية مختلفة.

كما تجلت تلك الذاكرة في عدد من الروايات من خلال استلهام المرويات الثقافية الخاصة بكل جماعة، من أجل تمثلها لمواجهة مخاطر الاحتلال والصراع الطائفي المقيت الذي لم يهدد وجود جماعة دون أخرى، وإنما هدد الوجود الاجتماعي برمته، فجاء النص الأدبي في جانب منه محاولة لمواجهة تلك المخاطر الداهمة، وإعادة تشكيل رؤية جديدة قائمة على الوعي بأهمية الوحدة الوطنية، والتعايش السلمي في بلدٍ يتطلَّعُ بأمل نحو بناء دولةٍ آمنةٍ مستقرة كريمة.

---

[15]() د. جعفر نجم نصر، الانثروبولوجيا التاريخية/ الأسس والمجالات في ضوء مدرسة الحوليات الفرنسية، دار الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2013، ص94.